أبعاد إنسانية من حياة رسول الله الأسرية



فضيلة الأستاذ الدكتور : حميد مسرار

باحث في فقه الأسرة – المملكة المغربية

الحمد لله رب العامين و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد و على اله و صحبه أجمعين ، أما بعد ، فلا زالت الإنسانية في حاجة لأنموذج أسري واقعي تسترشد به في زمن العولمة و الحداثة و في وقت تناسلت فيه الأفكار و الرؤى التي تنظر للأسرة وإذ لا خلاف في أن كل تلك النظريات الحديثة و المحدثة لم تستطع حل مشاكل الأسرة و إشكالاتها المتجددة (من ارتفاع نسب الطلاق وإهمال الأطفال وفشو الزنا و ظهور ما يسمى بالأم العازبة) فلا شك أن حلها يحتاج لدستور أسري واقعي يعترف بالإنسان و ينشد صناعته من محضن التربية و الأخلاق و القيم ، و خير أنموذج أسري على الأمة أن ترجع إليه ،بيت رسول الله صلى عليه و سلم ، فهو بيت التوحيد و الدعوة إلى الله و هو بيت الأخلاق و القيم و العمران بل هو بيت صناعة الإنسان بامتياز و نظرا لأن صناعة الإنسان تستلزم الاعتراف به و بكينونته و ذاته المادية و الروحية فلا شك أن الكشف عن معالم الإنسانية من داخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم للأمة طريقا واضحا لما يجب أن تكون عليه الأسرة إن هي أرادت أن تلعب دورها الحضاري المنوط بها.

❖ الإنسانية في التصور الإسلامي :

كرم الإسلام الإنسان و جعله خليفة في الأرض بما أودعه فيه من خصائص تميزه عن باقي المخلوقات قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا1 .

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم 2 لقد اعتنى الإسلام بالإنسان عناية خاصة يقول الدكتور القرضاوي :'إن كل دارس للإسلام في كتابه و سنة رسوله يتبين له بجلاء أنه وجه عناية بالغة إلى الجانب الإنساني و أعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه و توجيهاته و تشريعاته3.

---

[1] سورة الإسراء الأية 70

[2] التحرير و التنوير164/15

[3] الخصائص العامة للإسلام يوسف القرضاوي ص 57 ط2 مؤسسة الرسالة 1421

وبالرغم من هذا الاهتمام ، فقد شق على الباحثين تعريف الإنسانية، يقول الأستاذ عبود: "ولا تعريف للإنسانية سوى أنها الإنسانية ، فالإنسانية غنية عن كل تعريف و أي تعريف لها يؤدي إلى غموض أكثر مما يؤدي على إلقاء الضوء عليها "1.

و مهما يكن من صعوبة التعريف فقد حاول بعض الباحثين الإحاطة بالمصطلح ، فعرفها الفيروز أبادي" بأنها خلاف البهيمية و جملة الصفات التي تميز الإنسان أو جملة أفراد النوع البشري التي تصدق عليها هذه الصفات "2 و الدكتور عبود" بأنها مجموعة من الملكات و المواهب الفطرية التي تدرس منفصلة إحداها عن الأخرى بغرض الدراسة وحـــدها و لكنها بطبيعتهـا متداخلة و متكاملة و متفاعلة ليصدر عنها مجتمعة ذلك السلـوك الكلي المعقد و المادي و الروحي و النفسي و الاجتماعي الذي به تعرف الشخصية في خارج إطارها المادي " 3و الذي نخلص إليه بعد الجمع بين التعريفين أن الإنسانية هي مجموعة من المواهب و الملكات التي تميز الإنسان عن غيره ،مواهب تدل على طبيعته و حقيقته و صفته و دوره الذي أنيط به و الذي نؤكده أن الإسلام راعى الإنسانية في جميع أحكامه و تشريعاته بل جعلها مقصدا من مقاصده بضوابط و أسس نعتقد أن تحقيـق الإنسانية مرتبط بها ارتباطا وثيـقا و منها :

- **التوحيد :**

إن بلوغ الإنسان لمستوى الإنسانية الحقة مقترن بتوحيد الله وإفراده بالعبودية ، فهو الذي خلقه وكرمه و جعله خليفة في الأرض ، وهو الذي خلق الناس متساوين لا فرق بينهم في أصل الخلقة قال تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ4لذلك نقول : إن الإنسانية في التصور الإسلامي مرتبطة بإفراد الله بالعبودية دون سواه ليصبح الإنسان سيد الكون لا يخضع و لايتذلل إلا لخالقه وموجده.

- **الأخلاق والقيم :**

فلا سمو ولا رقي لمستوى الكمال الإنساني إلا بالأخلاق و القيم ، ذلك الكمال الذي قد يضيع كلما غلب على الإنسان جانبه المادي، فيرتبط نظره بالدنيا و مصالحها و يغيب بعد القيم و الأخلاق و التزكية ، لذلك كانت التزكية من مقاصد الإسلام العليا ، لتنقل الإنسان إلى مدارج الكمال الإنساني بدعوته للتخلق بالصبر و الصدق و الإحسان و الكرم و الرحمة وهي قيم تهدف إلى تكوين مجتمع إنساني في سلوكاته و معاملاته .

إن بعد الأخلاق و القيم يجعل من الـعيش الإنساني عيشا ذا معنى رفيع يلفه الحب و التعاون و التآخي و من الحياة البشرية حياة رسالية همها الاستخلاف و التعمير .

---

[1]الملامح العامة للمجتمع الإسلامي د عبد الغني عبود 68/9 ط1979 دار الفكر العربي
[2]البحر المحيط في التفسير أبوحيان الاندلسي4/1دار الفكر
[3]الملامح العامة د عبد الغني عبود ص69
[4] سورة الحجرات الأية 13

➢ **الاستخلاف و التعمير :**

من أسس تكريم الإنسان و ضمان إنسانيته ، فهم الوجود و ترك بصمة العمران ، فالله سبحانه و تعالى لم يخلق الناس عبثا دون هدف بل كلفهم بمهمة التعمير الذي تتطلب التعاون و التكافل و الاحترام و التقدير قال تعالى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون" [1] ،لذلك كان التعمير بمختلف مستوياته ضامن لإنسانية الإنسان لما يضمنه له من تحقيق حمل الأمانة التي كلف بها قال تعالى : " إنا عرضنا الأمانة على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا" [2].

➢ **بيت النبي معالم و دلالات :**

إن المتأمل في بيت النبي ليجده زاخرا بألوان الدلالات و العبر التي على الأمة أن تعيها إن هي أرادت بناء جيل متفرد يحمل هم الدعوة و يصبو لتحقيق الشريعة ، و الوقوف عند أهم معالم هذا البيت يتطلب الوقوف عند بيت خديجة و هي الزوجة التي لم يتزوج غيرها حتى أسلمت الروح لبارئها و عند أزواج النبي و أبنائه .

➢ **خديجة في بيت النبي :**

تزوجها النبي و هي التي رأت أخلاق الرجولة و الوفاء و الأمانة شاخصة في محمد بن عبد الله، فبادرت لخطبته، فكان الزواج الميمون التي أثمر أعظم بيت في التاريخ ، هي الطاهرة في الجاهلية و الإسلام و هي التي شهد لها التاريخ بوقوفها إلى جنب رسول الله في أصعب الظروف و أشدها قساوة ، لقد أعطت أمنا خديجة أنموذجا للزوجة المساندة لزوجها في وقت العسر و الشدة كما أعطى الزوج النبي أنموذجا للزوج المحب الوفي لها في الحياة و بعد الممات ، روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت ، كان رسول الله ص إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء قالت فغرت يوما فقلت ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله تعالى خيرا منها فقال ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها قد أمنت بي وكفر الناس و صدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ ادخر ني الناس ورزقني الله تعالى أولادها إذ حرمني أولاد الناس [3].

لقد كان بيت خديجة بيت الدعوة إلى الله و بيت الأخلاق الفاضلة فما خرجت منه إلا وقد أدت رسالتها و بشرت بأفضل الجزاء بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب [4].

➢ **أزواج في بيت النبي :**

توفيت خديجة ،فتزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم تباعا بعشرة أزواج هن سودة بنت زمعة و عائشة و حفصة وأم سلمة و رملة بنت أبي سفيان و زينب بنت جحش و زينب بنت خزيمة وميمونة بنت الحارث وجويرية وصفية ، أزواج مختلفات في العمر و الجمال وفي البكارة و الثيوبة و في الصفات و الأنساب، فكانت حياته مليئة بالبر والرحمة ، و المحبة و المودة،و الفرح و الحزن ، و الغيرة و الخصام، و المعاناة وضيق الحال إنها حياة حافلة بالأحداث الإنسانية التي تعبر عن تكريم الإنسان و الاعتراف بفطرته ، بل تعبر عن أهمية الأسرة في بناء شخصية الفرد

---

[1] سورة المؤمنون الآية 115
[2] سورة الأحزاب الآية 27
[3] مسند الإمام أحمد باب حديث عائشة 150/6
[4] سنن البيهقي الكبرى باب تسمية أزواج النبي 70/7

المسلم ، لقد عبر رسول الله عن الرحمة في حياته الأسرية حينما تزوج بسودة بنت زمعة و حين تراجع عن طلاقها لما خاف إذايتها و إحراجها فما كان منها إلا أن تلقفت إشارة الرحمة فوهبت يومها لأحب نساء النبي عائشة، تلك البكر التي كان نصيبها من المحبة القلبية ما لم يكن لغيرها فقال عليه السلام معلنا عن ذلك : اللهم هذا قسمي في أملك فلا تلمني فيما تملك و لا أملك "1 وإذا كانت محبة عائشة من الأمور التي لم يستطع عليه السلام إخفاءها فقد كان حنوه على أزواجه باديا إرضاء لهن و استجلابا لمودتهن و إبقاء لخواطرهن كما فعل مع حفصة و كان عدله بين نسائه ساطعا و كان حزمه في اتخاذ القرار لما خيرهن بين المكوث معه أو الطلاق لما سألنه الإنفاق ولما هجرهن شهرا فارقا ، إنها حياة لم تسلم من غيرة نسائه كما في قصة زينب و مارية و الجونية و لم تعرف الرخاء فقط بل المكابدة والصبر على ضيق الحال، عن عائشة ، أَنَّهَا قَالَتْ : مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.2

و على الاتهامات الباطلة التي مست عرض أطهر بيت في الوجود كما في حادثة الإفك . لقد أعطى بيت رسول الله أنموذجا لحياة إنسانية واقعية تلمس تفاصيل الحياة البشرية التي تعتريها الأحوال الإنسانية المختلفة فما علينا إلا تلمس أبعادها الإنسانية .

➢ **أبناء في بيت النبي :**

ولد للنبي أبناء ذكورا و إناثا من خديجة و ماريه ، ولد له من الذكور القاسم و عبد الله و إبراهيم و من الإناث زينب ورقية و أم كلثوم وفاطمة وإذ رزأ فقد الذكور وهم صغارا و الذي خلف حزنا عميقا في نفسه حيث قال في وفاة ابنه إبراهيم إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرضى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ، يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ3 فقد كان في معاملته لبناته و أبنائهن دليل على تكريم المرأة و مساواتها الفعلية للذكر ،لقد كان في احترام رسول الله لبناته دعوة لاحترام الأبناء داخل الأسرة، فقد كان عليه السلام يقبل فاطمة و يجلسها مجلسه تكريما لها و إعلانا لمحبته لها و كان يشاور بناته في تزويجهن اعترافا منه بحرية الاختيار كما أجار ابنته زينب لما أجارت زوجها الربيع بن العاص وأصلح بين علي و فاطمة إفصاحا عن رحمته بالبنات و عدم عضلهن والصلح بينهن وأزواجهن ، وإذا كان عطفه على بناته قد بلغ مبلغا عظيما فقد قدم في تعامله مع أحفاده: الحسن و الحسين وأميمة بنت زينب دروسا لكيفية تربية الأبناء وتوجيههم داخل الأسرة برحمتهم ومداعبتهم ومصاحبتهم في جميع أحوالهم تربية و تهذيبا .

لقد كان بيت النبي بيت تربية و علم، بيت خرج رجالا و نساء شهد التاريخ بصلاحهم و دورهم الرائد في صناعة الحضارة الإسلامية .

1المستدرك على الصحيحين الحاكم النيسابوري كتاب النكاح دار الكتب العلمية – بيروت ط1 ، 1411 – 1990

2 كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : علاء الدين الهندي البرهان فوري المحقق : بكري حياني – صفوة السقا المؤسسة الرسالة ط5 1401

3صحيح البخاري كتاب الجنائز باب قول النبي إنا بك لمحزنون 439/1

❖ **أبعاد إنسانية من حياة رسول الله الأسرية :**

إن المتتبع لمعالم بيت النبي يتبين له بالملموس حضور البعد الإنساني في حياته الأسرية ، فهو بيت التوحيد و الأخلاق وهو بيت الـتعمير و الاستخلاف و هي أسس قد نجد تجلياتها من خلال العناصر الآتية :

- **الاعتراف بالفطرة :**

خلق الله تعالى الإنسان مزودا بفطرة هي مجمع الملكات و المواهب و المشاعر والأحاسيس ففطرة الإنسان هي البنية التي خلق عليها الإنسان في بعديها المادي و الروحي[1] ، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : الفطرة الخلقة أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق ، ففطر الإنسان هي ما فطر أي خلق عليه الإنسان ظاهرا و باطنا أي جسدا و عقلا [2] ، فإذا صرفت إلى الخير كان للفرد و لمجتمعه نصيب منها و إذا صرفت اتجاه الشر كان له و للمجتمع كفل منها . إن اعتراف البيت بالفطرة و توجيهها و التعامل وفقها يجعل من البيت بيت مودة و رحمة و تسامح، واستقرار وسعادة، من هنا نفهم اعتراف رسول الله بالفطرة داخل بيته وتعامله وفقها فقد كان عليه السلام يبدي محبته لأزواجه ويعلن إرضاءه لهن و يكشف رحمته للأبناء ويتجاوز عن الزلات،، لقد كان بيت رسول الله بيت اعتراف بالأحاسيس و المشاعر التي تخالج النفس البشرية تلك النفس التي تحتاج إلى من يحنو عليها ويقدرها و يصون كرامتها ،لذلك نقول إن الاعتراف بالفطرة داخل بيت رسول الله هو اعتراف بإنسانية الإنسان .

- **حرية الاختيار :**

اعتبر الشرع الحرية مقصدا من مقاصده و حذر من الاعتداء عليها لما في ذلك من استنقاص لإنسانية الإنسان و هدر لما يجب أن يقوم به من مهمة الاستخلاف والتعمير وتأسيسا على ذلك جاءت الشريعة بأحكام كثيرة تهدف إلى حفظ حرية الإنسان يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : إن استواء أفراد الأمة في تصرفهم في أنفسهم مقصد أصلي من مقاصد الشريعة وذلك هو المراد بالحرية [3] ، وإذ جعلت الشريعة الحرية مقصدا من مقاصدها ،فقد كان بيت رسول الله ترجمة عملية لها ، فقد كان نساؤه يراجعنه في كثير من الأمور وهو أمر لم يقتنع به عمر رضي الله عنه حتى سأل ابنته حفصة، كما خيرهن بين البقاء معه أو تسريحهن لما اشتكين ضيق الإنفاق إعلانا بأن الحياة الزوجية هي حياة اختيار و ليست حياة إجبار كما خير عليا بين الإبقاء على عصمة ابنته فاطمة أو فراقها لما هم بزواج بنت عدو الله أبي جهل فدل كل ذلك على أن الحرية شرط أساس لضمان إنسانية الإنسان داخل الأسرة .

- **محضن الأخلاق و القيم :**

قد يجد المرء نفسه مشدوها أمام مشهد الأخلاق داخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان بيته عليه السلام بيت وفاء يدل على صدق المحبة التي قد تجمع بين الأزواج ولقد مر معنا وفاؤه لخديجة حية و ميتة كما كان بيت صبر على الشدائد و المحن :محنة الحصار و محنة الإفك و محنة الدعوة إلى الله و بيت عفو و تسامح كما في قصة عائشة حينما أسقطت صفحة الطعام وبيت رحمة بالأزواج و الأطفال كما في تعامله مع سودة والحسن و

[1]- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة عبد المجيد النجار دار الغرب الإسلامي ط1 2006 ص 87

2-مقاصد الشريعة الطاهر بن عاشور دار الثقافة للنشر والتوزيع الأردن ط2 2001/1421. ص198

[3]- نفسه ص309

الحسين وأميمة بنت زينب إنه فعلا بيت أخلاق و قيم و لقد صدق الله تعالى حينما أشاد بخلق نبيه فقال وإنك لعلى خلق عظيم[1].

- **المشاركة في التعليم و السياسة والحياة العامة :**

لقد كان بيت رسول الله بيت علم و مشاركة في الحياة العامة ، فقد كانت أمنا عائشة أول مرجع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يرجع إليه قال الزهري : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل [2]و كان عمر رضي الله عنه يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء وبأحوال النبي البيتية ، لا يضاهيها في هذا الاختصاص أحد من النساء على الإطلاق [3] ،كما ساهمت أم سلمة في رأب الصدع بين المؤمنين حينما أشارت على رسول الله بمشورتها الموفقة في صلح الحديبية أما زينب بنت خزيمة أم المساكين فقد كانت كثيرة التصدق على الفقراء و المحتاجين مشاركة منها في العمل الاجتماعي الذي يحتاجه المجتمع ، لقد كان بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتا مشاركا في كل تفاصيل الحياة العامة ليتأكد دوره في بناء صرح الأمة الحضاري .

وخلاصة القول : فلا صلاح للأسرة المسلمة إلا إذا استحضرت البعد الإنساني داخلها و لا شك أن المتتبع لحياة رسول الله الأسرية يتبين له ذلك فهو بيت اعتراف بالفطرة و الأخلاق وهو بيت حرية لا عبودية فيه إلا لله تعالى كما هو بيت عمران ومشاركة في الحياة العامة. إنه أنموذج للاعتراف بالإنسان داخل الأسرة .فما على الأسرة المسلمة إلا الإقتداء به إن هي أرادت تكريم الإنسان والمشاركة في الصرح الحضاري للأمة و الحمد لله رب العالمين

[1] سورة القلم الآية 4

[2] الإصابة 4في تمييز الصحابة لإبن حجر العسقلاني تح علي محمد البجاوي ط1 دار الجيل 360/1992

[3] عائشة و السياسة سعيد الأفغاني ص 15 ط1975 طبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة